

تقديس الطبيعة والديانة الكونية

Reverence for nature and cosmic religion

أيت صديق منيرة¹ أ. د : تيجاني ثريا²¹ جامعة مولود معمري تيزي وزو الجزائر،

mouniraseddik19@gmail.com

² جامعة الجزائر 2

تاريخ الاستلام: 2022/07/31 تاريخ القبول: 2022/09/08 تاريخ النشر: 2022/10/08

الملخص بالعربية:

تتجلى بوضوح مكانة المقدس في حياة الفرد إذ يقوم بتعديل الوضعية الاجتماعية ويخفف من حدة الضغط الذي يعيشه يوميا تتقرب إلى المقدس عن طريق الطقوس والنذور ليندمج معه ويعيش مع العالم العلوي في كون مفتوح، يتواصل معه، فالبيت الذي يسكنه أو القبة أو المعبد أو المسجد الذي يؤدي فيه شعائره يمثل فتحة عبور يجعل المرور ممكنا العالم آخر فالمتدين يعيش تجربة روحية غير دنيوية، أنها تكامل بين مبدئين الطبيعة والروح، إنها تجربة على مستوى آخر تصاعديا.

الملخص باللغة الفرنسية:

Le sacré et le profane de concept sauvent l'homme est confronté à un univers complexe sa curiosité transgresse les interdits et les normes, il communique avec cet espace ouvert grâce a des rites ou la communion est possible entre la nature et l'âme, ainsi vers un monde paranormal devient accessible a l'homme.

المؤلف المرسل: أيت صديق منيرة

مقدمة

يتطلع الإنسان بطبيعته إلى ما هو أعلى منه (المقدس) ويسلك سلوكات وممارسات و معتقدات وهي التي تكون الشعور الجمعي اتجاه المقدس. لعل من أهم الباحثين المعاصرين الذين تأثروا بفكرة علاقة الإنسان بالمقدس وقد أرسى قواعده الأولى دور كهيم يقوم: إذن روجيه كابو الذي اصدر كتابا حول "الإنسان والمقدس" فيقول " المقدس هو إحدى مقولات الإحساس التي بنى عليها السلوك الديني التي تمنحه خاصة النوعية وتفرض على المؤمن شعورا مميزا بالاحترام يحصن أيمانه ضد روح النقد، كما يجعله بمنأى عن الجدل العقيم بوضعها إياه خارج نطاق العقل وما وراءه"¹.

إن هذا الاعتقاد راسخ في أذهان الناس، يتجهون إلى الولي لطلب حاجاتهم واسترضائه بنذور وقرايين لجلب الراحة النفسية والمادية وفي نفس الوقت الحفاظ على دوام الرزق ونمائه.

من هذا المنطلق بادرت إلى أذهاننا مجموعة من الأسئلة بنينا عليها إشكاليتنا محاولين الإجابة عنها من خلال هذا المقال وهي كالآتي:

1- لماذا يعتقد زائر الولي أن تقديم النذور تغير سنة الله المقدره بالسنن الإلاهية التي تحكم مسألة الرزق في الإسلام؟

2- إلى أي مدى تساهم النذور في جلب الراحة النفسية والروحية والامتناع عنها بعد عن الدين؟

3- ماذا حققت الفئات التي تنذر من أجل الرزق لم تتوصل إليه من تخلفت عن تقديم النذور ؟

الفرضيات:

1- النذور تغير أقدار الناس وتوفر لهم الحظوظ.

¹ كايوروحية، الإنسان والمقدس، ت سمير ورشا، المنظمة العربية للترجمة، ط 1، بيروت 2010، ص 36.

تقديس الطبيعة والديانة الكونية

2- الأولياء واسطة مع الله لطلب رغباتهم وقضاء حوائجهم.

3- الامتناع عن النذور يعطل أرزاق الناس.

أهداف البحث:

- توضيح أن مسألة الرزق هي خاصة بالقضاء والقدر.

- ظاهرة زيارة المقامات والتوسل بالأولياء تعتبر واسطة بين الله وعبيده.

- بهذه الدراسة نهدف إلى إثراء البحوث الأنثروبولوجية.

1- ظاهرة المقدس والمدنس

يتجلى البحث عن ظاهرة المقدس في كل تعقيدها وليس فيما تتضمنه من لا عقلانية، فليست العقلانية هي المهمة من بني العناصر ألا عقلانية أو العقلانية للديانة، إنما المهم هو المقدس في كليته، وعليه فالمقدس هو ما يعارض المدنس أو الدنيوي أوكل ما هو طبيعي مألوف ومعروف أما المهم، والخيالي والمخيف والعظيم وكل ما هو غامض فهو يعبر حتما عن المقدس ونحن شعير اللغة من العالم الطبيعي لتوظيفها للتعبير عن كل هذه المظاهر المجهولة، المعقدة التي تعتبر حقيقة تكمن في ما وراء الطبيعة، فالإنسان يشعر بالعجز والضعف والعدم أمام هذا المظهر الخارج عن المألوف الذي يفوقه عظمة وقوة ويأخذ صفة القداسة والإلهية أحيانا.

ويستعمل مؤرخي الأديان مصطلح "التجلي" وهي المعنى الاستقائي الذي يحتويه مضمون الأشياء وتتحول إلى مقدسات قد تصل إلى أعلى قمة التجسيد الإلهي وهي الحقيقة التي لا تنتمي إلى العالم المعروف المادي الذي ندركه بحواسنا أنما تراك هذه التجليات في ظاهرة معينة قد تكون جمارا أو حيوانا هي التي تضفي صفة القداسة على الموضوعات العادية، فمثلا الحجر أو شجرة لا تمجد لذاتها إنما ولا تعبد وتقديس لظواهرها، إنما لتجلي الأرواح العلية في صفاتها والقداسة بالتالي تقتصر على الكائنات المطلقة الغامضة وتتحول إلى حقائق غير طبيعية، غير

مألوفة، قد يتجسد الكون بكليته فيها وعن ثمة تظهر قوة هذه الأشياء الخارقة للعادة ويصبح هذا الجماد يحمل حقيقة مطلقة وخالدة يسمد منها الإنسان المتدين طاقته وقدرته في المساهمة في الواقع وتغييره وغالبا ما يكون المقدس هو الذي يوجه حياته خاصة في المجتمعات القديمة، بينما الإنسان الحديث، المعاصر بدأ ينسلخ تدريجيا من الروحانيات واكتفى أن يكون دنيويا، أي يرى الأشياء على أنها طبيعية، مألوفة، مدنسة تحمل الصفة الحقيقية لها وحاول تجديها من كل الصور والأبعاد الوجودية الكونية، ففته، شعرت بالارتياح في هذا النظام الكوني المادي، الخالي من المطلق والمجرد وهو اكتشاف حديث للروح الإنسانية المشبعة بقيمة ثابتة، هي المادة أحدثها تغيرات تاريخية ودينية وثقافية في التجربة الكونية، بينما فئة أخرى، وهي الغالبة، رغم التحولات التاريخية والتغيرات الاجتماعية لم تنسلخ إطلاق من الكينونة الروحية، بل وأصلت في تجربتها المتجلية في كل مظهر من مظاهر القداسة، حيث تتواصل معها بالطقوس وتقديم القرابين ومشاركتها في تناولها، إذن يبدو أن في هذا الكون توجد تجربتين الأولى: مقدسة والثانية مدنسة. وفي إطارهما يعيش الإنسان ويستمد قوته، حتى هذا الوجود المدنس، العادي، المؤلف يمكن أن يتحول إلى وجود مقدس غير مؤلف غامض يحمل صور التجلي المطلقة ويحمل أبعاد كونية بالنسبة للإنسان المتدين وهذا المجال بحث فيه العديد من الانتولوجيين والانثربولوجيين وعلماء النفس والمتخصصين في تاريخ الأديان والفلسفة ولا يزال يستلمه الباحثين، الذين يهتمون بدراسة سلوكات الإنسان في القديم والحاضر باعتبار أن كل العالم قابل لأن يصبح مقدسا. لا يفوتنا أن تنوه إلى نقطة أساسية ألا وهي تأثير وتأثر الإنسان عبر التاريخ بالثقافة. نجد الإنسان الأول أي ما قبل التاريخ أهتم بالصيد، ثم بالزراعة، أي تحول من عالم حيواني إلى عالم زراعي فالرمزيات والمعتقدات اتجاه الكون تحولت أيضا، فمثلا "نائية الأرض/ إلام ترمزان إلى الخصب، فإلام والأرض

تقديس الطبيعة والديانة الكونية

تحملان صفة القداسة، فاكتشاف الزراعة أدى إلى صياغة نظام ديني يرمز إلى الخصب البشري، كي ندرك ونستشعر هذا الاعتقاد علينا أن نقارن بين ثقافات الشعوب.

وتطوراتها عبر المراحل والحقب التاريخية إلى إن نصل إلى المقارنة بين ثقافة الإنسان القديم وثقافة الإنسان المتحضر أو الحديث ندرك الفواصل بين المجتمعات وبذات الأمر، ندرك صحة المقارنات بين الوقائع الدينية العائدة لثقافات مختلفة والتي تكشف سلوك الإنسان المتدين، المثقل بالقيم الروحية. يدرك الإنسان في عامله ووجوده والكون الذي يحيا فيه، تجربتين متضادتين، متناقضتين دائما في تأثير وتأثير مستديين وأحيانا يؤدي التناقض الذي ينتابهما إلى الانفصال تماما، تشكيل عالين مختلفين، وحيويين متنوعين:

التجربة II

I التجربة

المكان أو الحيز المقدس	المكان أو الحيز المندس
مطلق - ثابت	نسبي - متغير
-عدم التجانس	متجانس حيادي
-إنشاء العالم (الكون)	أسبقية العالم
وجود ديني ← افتراضات	وجود دنيوي خالي ← من الافتراضات
ومسلمات الدينية	والمسلمات الدينية
-غامض-مهم-غير مألوف	واضح- وطبيعي ومألوف
-القوة والطاقة	الضعف - بدون قوام
-المعنى- الرمز-الدلالة	-بدون معنى -بدون رمزية - بدون دلالة
-الباطن- العمق	الظاهر - السطحي
-اللانهايي -اللامحدود	نهائي - محدود
-الطهارة	الدناسة

ويجب أن نشير إلى أن الإنسان الذي اختار أن يعيش في حيز دنيوي ومهما كانت درجة نزع القداسة عن العالم، فلا يمكن هذا الإنسان الذي تجرد من

القداسة أن ينجح تماما بإلغاء السلوك الديني، حتى الوجود بأسره والأكثر تجردا عن القداسة مازال يحافظ على ملامح تقييم ديني للعالم.

كي تبرز عدم تجانس المكان المقدس و كما يراه و يعيشه العقدين نسرد مثال عاديا مشاعا عندنا في الجزائر و كذلك عند أشقائنا المغاربة و التونسيين والمشاركة، كما نجده عند المسيحيين و اليهود.

2- قداسة المكان وفكرة التجلي:

نلاحظ أن مقام الولي أو الجامع الذي لا تقام فيه الصلاة، أنما الذي تحتل جيرا في فضاء المقدس، بمعنى يجاور ضريح الولي و تقام فيه "الزردات" و"الوعدات" أحيانا في المواسم الدينية كالمولد النبوي و عاشوراء و عند بداية الخريف عادة في أواخر سبتمبر و أكتوبر إلى شهر نوفمبر يسمى عند الأمازيغ "تيبورا اسقاس" بمعنى أبواب العام ، في هذه الفترة تقام "المعدات" في أضرحة أولياء و تقدم النذور و نذبح الأضاحي و القرابين لنزول الغيث و بداية موسم الحرث لكي تعمم البركة و الخير و يكون عاما خصبا ، فالمعتدين يرى في هذا المقام أو الفضاء المقدس بعدا روحيا بمعنى إن الجامع الموجود في ذلك الحيز المقدس (ضريح الولي) يشارك في مكان آخر غير الحيز الذي يتواجد فيه المقام. نحاول اذن تحليل رموز هذا المكان المقدس المتمثل في الجامع أو المقام و نقصد بالأول أين يجتمع الرجال أما لحل المشاكل اليومية أو لتدبير شؤون القرية و ليس موضعا للصلاة أما المقام فهو الفضاء أو الحجرة التي يتواجد فيها ضريح و تابوت الولي.

و في هاتين الحجرتين (الجامع و المقام) يوجد رمزين يفصلان بين عاملين الأول دنيوي (مدنس) و الثاني ديني (مقدس) وهما الباب و العتبة.

فالباب الذي يفتح إلى داخل المقام يود على الاستمرارية بمعنى يستمر العام الدنيوي مع العام الديني، الخارج و الداخل.

تقديس الطبيعة والديانة الكونية

والعتبة تسمح بإجراء هذا التواصل والمرور من عام دنيوي إلى عام مقدس. فهي الفاصل والحد الذي يميز بينهذين العالمين والعتبة في نفس الوقت تفصل المكانين وتدل على المسافة الموجودة بين الطرقتين للكون دنيوية ودينية .

فالباب والعينة رموز وعربات المرور بين عالمين متناقضين المقدس /المدنس ونظرا للأهمية الطقسية للعتبة وهذا اعتقادا أنها تملك حراسا من الإلهة والأرواح الطيبة والخبيثة، فهي تدافع عن المدخل من كل سوء نية الأشخاص والقوى الشيطانية والأمراض النفسية لذلك تقدم الأضاحي على العتبة تذبج عند الدخول إلى المنزل الجديد إي قبل دخوله لدفع العين وأبعاد الجن و الشياطين، فهي فداء لساكني الأعتاب من الأرواح الشريرة حسب معتقداتهم، يجب أن تقدم الذبيحة لاسترضاء هذه الأرواح واستئذانها للدخول إلى البيت وومنعها هي من الدخول إليه حتى لا تسكنه فهذه العادة معروفة في كل أنحاء القطر الجزائري من الوسط إلى الشرق إلى الغرب إلى الجنوب فسكان الصحراء البدو والرحل يقومون بهذا الطقس قبل نصب خيامهم لذلك العتبة هي المكان الأفضل للممارسة السحر و ربط الأحجبة أو دفن العظام أو رش الماء المسحور أما لإلحاق الضرر لأهل البيت أو لجلب المنفعة، فالعتبة هي الفاصل الرمزي بين الداخل والخارج كما أنها الممر الإجباري للشخص المراد إيذاؤه عند الدخول أو الخروج من المنزل

كما تمثل عتبة المنزل الحد الفاصل بين الخاص المتمثل في المنزل حيث الطمأنينة الأمان والراحة والخصوصية الذاتية للأسرة وبين العام حيث يتجسد الفاصل مع الآخر المختلف والمخيف أين يكمن الصراع والخطر وانعدام الأمان والتشويش وعدم استقرار.

يمكن الرجوع أيضا إلى مثال آخر متعلق بالثقافات والديانات الأخرى نجد الكنيسة أو المعبد يشملان على فتحة في الأعلى أو في الحائط هذا النطاق

المقدس يعتبر محل عبور المؤمن من أسفل إلى أعلى و هذا رمزيا ، كما يتسنى للألوهة و الأرواح الخفية أن تنزل من هذه الفتحة إلى داخل الكنيسة فالمعبد يشكل فتحة" صوب الأعلى ويضمن التواصل مع عالم الألوهة و رمزية الباب يتجلى في كل الديانات، في الأحلام نجد أن الله سبحانه وتعالى يذكر في القرآن أبواب السماوات السبع، إذن لكن سماء باب ، كما أن في الأرض حدود وأنظمة وقوانين وحراس، السماء أيضا تشمل على هذه القوانين، بالتالي، الاستمرارية الرمزية بين الأرض والسماء في تواصل دائم. الأرواح الأرضية تصعد إلى السماء والأرواح العلوية تنزل إلى الأرض ولكن بانتظام وقوانين الإستأذان، كل دخول يتطلب اخذ الإذن من صاحب المكان، حتى ملك الموت عندما يقبض روح إنسان. تأخذها الملائكة في كفن تطرق باب السماء الأولى، يفتح ملك ويستأذن بالدخول، وهذا حتى تصل هذه الروح إلى السماء السابعة أين تكتب روح المؤمن في "عليين" وتكتب روح الكافرين "سجين" لنزل مدة ثانية إلى الأرض بنفس الطريقة وتعاد هذه الروح إلى جسدها إلى يوم البعث والنشور، فنحاسب على أعمالها.

تتحلى إذن الرمزية المحتواة في العبارة باب السماء غنية ومعقدة: "فالتجلي كرس مكنانا بالعقل هو ذاته الذي جعله "مفتوحا" صوب الأعلى أي متصلا مع السماء ونقطة متناقضة للمرور من طريقة تكون لطريقة أخرى، ولن يفوتنا مصادفة أمثلة أيضا أكثر دقة، معابد هي "أبواب للإله" وأمكنة مرور بين السماء والأرض وغالبا لا يوجد حتى حاجة لظهور أو تجلي بمعنى الكلمة : فعلامة ما تكفي لتدل على قداسة المكان"² يبدو أن الناسك المتدين أحيانا لا تحتاج إلى ظهور أمكنة مقدسة، يصادف في طريقه علامة فيجعل ذلك الحيز مقدسا، كأن يضرب عصاه في مكان ويخرج منه الماء تصبح هذه العين مقدسة ومباركة تصبح إذن هذه العلامة حاملة لمداول ديني مطلق يضع حدا للنسبية، وعندما لا تظهر العلامة في

² الياد مرسيا، المقدس والمدنس، ات، عبد الهادي عباس، ط 1، دار دمشق، 1988، ص 29.

تقديس الطبيعة والديانة الكونية

المحيط، يعتمد المتدين إلى جلبها واستدعائها كي يضع حداً للتشويش الذي يعكسه المحيط الخارجي فمثلاً عندنا في الجزائر والتحديد في منطقة القبائل وعند الشاوية توجد عادة ترك كبش أو ثور يرعى وبعد أيام يبحث عنه ويذبح في المكان الذي وجد فيه ويقدم قرباناً للولي وقد يبني معتاداً في ذلك المكان أو مقاماً ويصبح مقدساً تقام فيه الاحتفالات الشعبية، و"الوعدات" فكلما ضحى أحد من القرية بكبش أو ثور يذبح في هذا المكان وتقوم النساء بإعداد الطعام واللحم في ذلك المقام لأنه مبارك ومقدس ويشارك

سكان القرى المجاورة وكل عابر سبيل هذه "الوعدة" وغالباً ما تقام في وقت حدد في السنة، يعلن عليها "البراح" أياماً قبل إجرائها، مثل وعدة "سيدي عقاد" وهو وفي صالح بقرية "بوهينون" على بعد 2 كلم من مدينة تيزي وزو، تذبح الذبائح ويطهى الطعام ويأكل الناس ويتم الطواف حول ضريح الولي وتلبس النساء الثابوت براءات جديدة من الحرير والقماش وتشعل الشموع وتدعى الحاضرات والحاضرين كل حسب حاجته، ففي هذه السنة بالتحديد في 20 أكتوبر 2017، يوم الجمعة أقيمت وعدة "سيدي عقاد" ككل سنة وبنفس الطقوس، سألنا النساء عن سبب "الوعدة" أجبننا لأن يغبثنا الله وينزل المطر، ويجرد عزمنا على النذر في المقام نزل المطر قبل الموعد بليلة واحدة هذا يدل على برهان وعناية وبركة "سيدي عقاد".

من الواضح إن حياة هؤلاء لا زالت تعج بهذه المعقدات على الرغم من التحول الكبير الذي يشهده المجتمع الجزائري على الصعيد الثقافي والاقتصادي والاجتماعي.

لنعود إلى فكرة تكريس المكان المقدس والتجليات الواضحة التي تلغي نسبة الحيز وفي بعض الأحيان، الإنسان مجبر الاختيار المكان المقدس بل واكتشافه أولاً: قد يستعين كما اشرنا إليه سلفاً بالحيوانات الداجنة، وهذا الاعتقاد وإنشاء

مكان مقدس يصبح حاملا للمطلق واللا محدود، فإن عدنا إلى البدايات الأول لنشر الرسالة المحمدية وإرساء معالم الإسلام في المدينة المنورة، عندما هاجر الرسول (ص) إليها ، أطلقت الناقة المباركة ومشت أمام الناس فأين بركت ثمة ببني بيت رسول الله (ص) و أول مسجد في الإسلام، فأطلقت الناقة وسارت نحو موضع مجهول لدى العامة لكنه محدد ومقر عند الله عز وجل، فحين وصلت برت الناقة في المكان المخير الرباني وبني بيت لرسول الله (ص) ومسجد قباء فالبشر ليسوا أحرار في اختيار المكان المقدس، بل يبحثون عنه ويكتشفونه بمساعدة آيات سرية.

رأينا أيضا أن المقدس هو في آن واحد، قوة وفاعلية، ومصدر حياة وخصب " أن رغبة الإنسان المتدين بالعيش في المقدس تعادل في الواقع، رغبته في أن يقيم نفسه في حقيقة موضوعية وأن لا يترك نفسه مسلولا بالنسبة دون هدف التجارب الشخصية الصوفية وللعيش في عالم حقيقي وفعال، ولكنه بصورة خاصة واضح في رغبة الإنسان المتدين لان يتحرك في عالم مقدس، أي في مكان مقدس "3.

إذن الإنسان المتدين يكتشف المكان القدس لأنه يبحث عن الطمأنينة والأمان ولاستقرار النفسي، فيعيش في عالمه الخاص، المعقم بالمعتقدات ويتقرب إلى المقدس عن طريق الطقوس هذه الأخيرة تنشئ عالما وكونا مقدسا وبالتالي تكرر فضاء ومكانا مقدسا.

وبعبارة أخرى، "إن كل الرموز والطقوس التي تتعلق بالمعابد والمدن والمنازل تشتق في آخر المطاف من التجربة البدائية للحيز المقدس"4.

³ المرجع السابق، ص 30.

⁴ نفسه، ص 50

تقديس الطبيعة والديانة الكونية

فالمعابد والمسكن كلها تقديس العالم باستمرار لأنه يمثل في الوقت ذاته محتوية. نفس المعنى بالنسبة للمقام أو الضريح: فضله يقديس المكان في كليته ومهما كانت درجة الدناسة وعدم الطهارة، فإن العالم والفضاء معرضان للطهارة باستمرار بقداسة المقامات والأماكن التي تقام فيها الذبائح والنذور والقرايين لأنها نموذج روحا في غير قابل للفساد، فكل هذه المزارات هي بمثابة كوزموس (cosmos) طاهر ومقدس يشبه الكون الأول الذي خرج منه الإنسان عندما كان في بداية بين سيدي الخالق.

إن الاحتفالات الطقسية "الزردات" و "الوعدات" تفرج كرب الجماعة الاجتماعي التي تحمي هذه الظاهرة التي تبدو كأنها عيد، فغموض الملتقى وممارسة هو أمر يعني، من جهة هناك من يهاجمه ولا يعتقد فيه، ومن جهة أخرى هناك من يمارسه ويحترمه ويعتقد فيه أو فئة أخرى، تمارسه اضطرابا أو تقليدا للعائلة و إرضاء للآباء والأجداد لكنها تشعر بالذنب والقلق وعدم الرضا هؤلاء هم الذين لجأوا إلى الطقوس الاحتفالية في الفضاءات المقدسة عن طريق تقديم النذور والأضاحي والتوسل بالأولياء من أجل الشفاء من الأمراض أو من أجل الزواج أو الإنجاب أو النجاح في تجارة أو مشروع أو دراسة، فرغم التوسلات وأقام "الوعدات" لإغراض اجتماعية أو ثقافية، فإن المريد والقاصد هذه الأماكن المقدسة، يبقى في حالة توتر وخوف واضطراب مادامت حاجته لم تقض وقد يشتمل القلق مدة طويلة وعندما لا نجد جدوى من هذه الطقوس، يلجأ إلى العلاج النفسي وحينئذ الطبيب أو المحلل النفسي يعود إلى اللاوعي وإلى الطفولة التي عاشها المريض والبيئة والوسط الذي عاش فيه وغالبا ما تكون هذه الفئة تنتمي إلى الريف، لأنها مشبعة بالعادات والتقاليد، فإذا انتقلت إلى المدينة بقيت محافظة عن نمط العيش المفعم بالطقوس وإحياء المواسم والاحتفالات الشعبية وبعدها التمسست المساعدة من الأولياء والمبرئين لكن عبثا، هرعت إلى الطب

لتعترف بالفشل و المرض والاضطراب عن الصعيد السيكولوجي والاجتماعي ،
عندما أدركوا أن مشاكلهم ليس لها حل في العادات والتقاليد وجدوا البديل
الوحيد هو الطب النفسي لأن معاناتهم أخذت بعدا مرضيا. عصبيا يستحيل
معالجتها بالطقوس والندور وأمام التغير الاجتماعي وفي عصر تتسارع فيه التحولات
على المستوى الفردي والاجتماعي وحتى هذه الأرض التي أصبحت مهددة في وجودها
نحن الذين تسببنا في كل هذه الانقلابات، إن هذه الاكتشافات التي غيرت حياة
الإنسان لم تحدث إلا بعد تخطيها حاجز المستحيل واللامعقول، كما لو كانت
تجاوز المنطق، فتارة أخرى يطفو المعقول على الواجبة وكأنها وسيلة جديدة
يكتشفها العقل بنفسه فيما وراء المبادئ التي زود نفسه بها.

فممارسة الطقوس السحرية والاحتفالات الدينية التي تحمل قيمة روحية
بالنسبة للشخص، بل تحلب له نوع من الراحة السيكولوجية، فعند ما يؤدي
شعائر الأجداد وكأنه وفي بالعهد وواصل المسيرة فيشعوا بأراء الواجب إزاء أجداده
والأولياء الذين يحرسون على مدينة أو قرية.

فأداء الطقس في هذه الحالة يؤدي وظيفة تفريجية، أي عند الانتهاء من
أداء واجب "الوعدة " إتجاه المقدس يشهر بالاطمئنان والارتياح النفسي، فهو
يفضل إن يصب مشاكله وقلقه واضطراباته في فضاء مفهم بالروحانيات عندما
يقوم بمجموعة من الطقوس والأذكار التي توصله إلى حالة هيجانية في قمة
الإثارة، فيترنح ويجذب ويبيدي حركات إيقاعية تجعل الجسد في حالة هيسيريا
ويصل به الأمر إلى الإغماء والسقوط نتيجة تلبس الجن بجسده، لكنه بفضل
الذهاب إلى مثل هذه الحلقات الطقسية أين نجد راحته، ويجدد عهده بالتقاليد
والعادات ويرفض اللجوء إلى طبيب النفسي والمعالج بطريقة طبية وعقلانية لأنه
يؤمن يقيها إن العلاج النفسي غير مؤهل لجلب الطمأنينة وعدم الخوف من العين
الشريرة مثلا أو الحسد أو السحر، فالطالب والمقدس الذي يحتوي على شر

تقديس الطبيعة والديانة الكونية

العناية الإلهية، لأن في الطقوس يذكر اسم اله واسم الولي الذي يضيف البركة، كذلك منح الرسول (ص) ، فهذه الانتفاضات الهديانية كافية لإخراج المشاكل النفسية والوصول إلى حالة الشفاء دون الاستعانة بالطب النفسي الذي لا يملك القدرة الكافية لإيجاد العلاج لمثل هذه الحالات، وفي هذه الإثناء الصاخبة والمفعمة بالروحانيات يجتهد "الخوان" إي المريدون والذين يرغبون في أن تنقل أيهم العناية والبركة وذلك بأخذ "الميثاق" من شيخهم والتعهد له بمواصلة المسيرة وإتباع الطريقة الصوفية التي انتهجها الشيخ والولي ويحافظ على الوراثة عندئذ تنتقل السلطة بالشهادة التي يمنحها له الشيخ، "تحت سلطة الولي العليا، الناضج والمعروف في كل المنطقة فبعد مقدمة دينية طقسية يقوم كما في احتفالات الانتقال بتعريف المرشح على "الميثاق" نوع من شهادة دينية في خصائص المسمارية الضرورية لقانون المدائح الشرعي "للبركة"⁵

وفي مقابل تحقيق هذه الرغبات ثمة هبات يجب أن تقدم للولي تشكل نوعا من التبادل مع المقدس، الشخص يضحي بقرباين للأولياء، وهؤلاء كتعويض يعمرهم المتدينين بالعديد من الخيرات.

فالشخص يعلم مسبقا أن مبدأ التبادل من الولي الذي هو واسطة بين العبد وربّه مرتبط ومشروط ينحصر الهائم إكراما للقداس، بالمقابل تحصل على تحقيق رغباته والوقاية من العين والحسد والشعر فهذه الطقوس تشكل حاجزا مانعا للعين والإضرار التي تأتي من الأعداء.

كما تعتبر بعض التعزيمات التي يوظفها الطالب من أجل الوقاية من العين أو بعض الآيات والصور القرآنية والرموز والجداول التي تكتب في ورقة ويأخذها المصاحب دائما معه تكون حجابا أو حرزا من الضرر الذي يكرهه الأعداء له.

⁵ طوالي نور الدين، في إشكالية المقدس، ت ح، وجه البعيني منشورات عديدات، بيروت 1988، ص. 33.

لقد طرح و تبين " وتحليله السوسيولوجي "للعين الشريرة" ما يسمى بالقبائلية "ثيط" ففي دراسة حول التعبير الرمزي عن التناقضات الاجتماعية في "سطيف" يمكن أن نستخلص من هذه الدراسة المهمة أن العين الشريرة تمثل معتقد عند سكان منطقة المنصورة بسطيف وهذه المنطقة ريفية ففي كل القرى التي أجريت عليها الدراسة لمس الباحث الإيمان القوي لكل المستجوبين من الفلاح إلى المرأة إلى الشيخ إلى العجوز فهذه العين نتيجة الغيرة والحسد وأحيانا الإعجاب والمحبة وهي أشد من العين الحسود كي يعتقدون هذه العين مدمرة ، معرقة للأرزاق وتسبب المرض والضعف والفسل، لذلك على المرء أن يحجب عن الآخرين، الجيران، الأصدقاء أهل القرية وحتى العائلة الكبيرة كل ما يثير الإعجاب من جمال أو ثراء أو ممتلكات مادية وكل الخصوصيات الشخصية لان العين "ثيط" كما يقول الباحث "وتيس" "تدخل...كجزاء محتمل دائما ضد كل من تخوله نفسه في تجاوز حد معين وهو الحد المثبت حكما كاللزام تقيد به كل فرد في المجتمع "الريفي" حيث تتمتع المساواتية بقوة القانون⁶.

ففي مجتمع مبني على أسس المساواة في الحقوق يذكر "بورديو" مثالا حيا حول الفلاح الذي تفرض عليه الجماعة أن تمتنع عن الغني بينما الآخرون في إنتاجية ضعيفة، فالقانون الساري في المجتمع الريفي إذا استغنى أحدا من الأفراد يتعرض المجتمع الذي يعيش فيه إلى الفقر والحرمان، فغني الفرد يكون على حساب الجماعة⁷

أنها نوع من العدالة تفرضها الحتمية الاقتصادية إذا استوجب الأمر و اقتضت الضرورة توضع قوانين ومبادئ تذكر العام والخاص بأن تجاوزها يستدعي

⁶ Ouatis aissa, les contradictions sociales et leurs expression symbolique dans le Sétifois, SNED (R. A .P E) Alger , ; 1977 , p 45

⁷ نفس المرجع، ن ص .

تقديس الطبيعة والديانة الكونية

الخضوع إلى مجموعة من الاقصاءات تعيد الفرد إلى النظام الساري في مجتمعه والعرض من هذا كله الحفاظ على العدالة الاجتماعية والاقتصادية.

3. علاقة الشعائر بالرموز:

أشرنا سلفا إلى لغة الجسد التي تمثلها حركات الجسم وتؤدي رسالة توطّد العلاقات الاجتماعية، وتجدر بنا الإشارة ، ونحن نتكلم عن لغة الجسد إلى التنويه إلى طاقة تسكن هذا الجسم وهي الروح والنفس، وعلاقتهما بالجسد في فكر القرويين في منطقة القبائل.

في اعتقادهم الجسد مسكون بروحين " روح منبثة *âme végétative* (النفس) وروح نافذة *âme subtile* ، أو نافخة "أروح"، فالروح المنبثة تطابق الأهواء والسلوكات العاطفية، يحملها الدّم ومقرّها الكبد. أمّا الرّوح النافذة أو النافخة، فتوافق الإرادة وهي تجري في العظام، ومقرّها القلب... فالروح المنبثة هي جوهر آتٍ من الأم، أمّا الرّوح النافذة فهي آتية من الغيب".⁸

يعتبر إذن هذا التصور لرُوحِيّ الجسد مصدر كلّ المعتقدات والشعائر والطقوس المصاحبة لاحتفالات الأفراح والأحزان معًا.

وعندما نتطرّق إلى دراسة الشعائر وعلاقتها بالرموز، علينا أن نشير إلى ماهيتها؟ فالرمز يشير إلى ظاهرة قد تكون مادية كشيء أنتجه الإنسان، فالمسلمون مثلا يصنعون قطعة ذهب أو فضة يُوضع بداخلها مصحف القرآن الكريم أو تعويذات نبوية أو يدّ فاطمة "الخامسة" تعلّق على الرقبة وكذلك عند القبائل في منطقة تيزي وزو، العروس، أو المرأة الحامل والرّضيع يعلّق في صدره "أُمْحَارَب" *une broche* من الفضة والمرجان يعتقد أنها تحافظ على كلّ من يلبسها من العين والحسد والسحر أو الأمراض وأذى الجن، فقيمة ورمزية الشيء هنا ليس في قطعة الفضة أو الذهب كمادة يصنعها الحدّاد، إنما تكمن الماهية في جوهر

⁸ Jean servier, tradition et civilisation berbère, les portes de l'année, édition du moches, monceau, 1985, p. 10.11

الأشياء أي في هذا المصحف أو التعويذات أو هذا الحلي الذي يعتقد القبائل أنه يقي ويبعد العين والحسد على لابسـه.

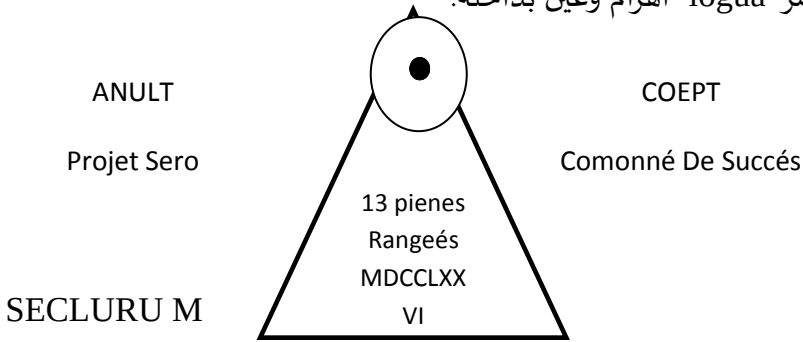
كذلك بالنسبة للصليب مثلاً عند المسيحيين، أو الشمعدان عند اليهود لا يستطيع غيرهم أن يعرف القيمة الرمزية من خلال نظرية لهما، إلا إذا أخبروه بقيمة وماهية الرمز الذي يحمله هذا الصليب أو الشمعدان كظواهر مادية مدّة على معاني مختلفة.

فالألوان مثلاً كمثـل رموزاً تقريباً موحّدة عند كلّ الشعوب، فالأبيض يرمز إلى السلام والأمن والأحمر إلى الخطر والأسود إلى الحزن، وقد يستعمل الرمز كدليل وعلامة مثلاً الأحمر علامة للوقوف، الأخضر علامة للسـير، وقد يكون الرمز حيوان، أو طائراً مثـل، النسر الموجود العلم المصري الذي يرمز إلى القوة، فالنسر أقوى الطيور الجارحة أو حيواناً كالأسد يصنع تمثالاً في وسط المدينة، كالأسد الموجود في عاصمة إنجلترا لندن ترمز إلى العظمة، أثبتت دراسة أمريكية مؤخرًا⁹ أن بعض الحيوانات المذكورة في الإنجيل وهي الأسد، الصقر، الدّب ترمز إلى أكبر الإمبراطوريات الحديثة التي رمز إليها الكتاب المقدّس بأنها تسيطر على العالم في آخر الزمان، فالأسد ذو أجنحة هي إنجلترا، والجناحين هي أجنحة الصقر تمثل الولايات المتحدة، بحيث نجد هذا الطائر خلف الدولار الأمريكي، أمّا الدّب فيرمز إلى روسيا، وقد حلّل باحث أمريكي مختص في فلسفة الأديان وهو قسّ مسيحي، بسبب وجود علامة الدّب في الرمز التي تتبناها روسيا ووجدها، في أضخم وأقوى وأسرع دبابّة حربية صنعت في روسيا خصيصاً للتدمير، فهذه الآلة الجامدة، تحمل معاً في رمزية، إذ الدّب يرمز إلى الشيوعيين، استعمال الإنسان للرموز تكسبه خبرات جديدة وأساليب للتعبير تساعد في تلخيص أساليب السلوك التي

⁹ ستصل رؤيا "دانيال" كما جاءت في الإنجيل، والحيوانات الأربع التي رآها ولم يفهم معناها 1550 سنة قبل ميلاد عيسى عليه السلام، لتتضح معاني الرؤيا

تقديس الطبيعة والديانة الكونية

تعلّمها ونقلها إلى الأجيال الجديدة، لأن الخبرات المادية ليست مستمرة بالضرورة، لكل خبرة بداية ونهاية، تفصلها فترة زمنية قصيرة أو طويلة، فالرموز هي التي تجعل التعلم متقدّمًا، وتخرجه من الجمود، كما هو الحال عند الحيوانات قد تتعلم كيف تستعمل الرّموز، لكنها عاجزة عن الإبداع والخلق والإدراك، فالرموز خاصة المتعلقة بالشعائر والطقوس الدّينية تساعد على تماسك الجماعات وترابطها، مثل ما هو الحال عند الجماعة الماسونية les frans-maçon، يمثلهم رمز "logua" أهرام وعين بداخله.



(Vouvlan ordre des sciecles)

Nouvel ordre mondial

الهرم يمثل رمز الشيطان ← عبدة الشياطين illumination .

العين ترمز إلى عين الدّجال، الملك المنتظر Anti-Crist عدو عيسى عليه السلام، ينتظره الماسونيين، ليكون سلطانهم وقائدهم، باعتبارهم لا يؤمنون بالمؤسسات الدّينية ولا بالأنبياء والرّسل، وهذا الملك المزعوم سيهزم ويقتله المسيح عليه السلام.

نحاول تحليل الهرم ورموزه: نلاحظ في أعلى الهرم عين الاله الذي يراقب ويسيطر على كل شيء، لما أن متوكة طائفة المستنيرين هم الصفوة يحتكرون العلم والمعرفة والسلطة وذلك بقدراتهم العقلية، انهم يسيطرون على قاعدة

الشعب التي تمثل الظلام وهم النور، الجهل وعدم المعرفة الذي يميز الشعب، يجعل هذه الطائفة تراقب العامة وتسيره من أجل الوصول الى نظام عالمي جديد، لذلك نلاحظ قمة الهرم لم تكتمل، هذا يرمز الى هذه المنظمة السرية التي تعمل من أجل خلق نظام عالمي جديد وجهودهم لهم تصل بعد الى النهاية، لكن في الاخر يستصرون ويشيرون العالم، بحلتهم وعلمهم وذكائهم المستمد من فترة تاريخية قديمة وهي الحقبة البابلية والسومرية ، حيث يعتنقون فكرة عبارة الالهة القديمة البابلية والفرعونية مثل الإله بعل اوزيريس، إزيسا ملوك (Molok) إله بابل وهذه العقيدة تعرف باخوة الثعبان" أو طريقة الثعبان، التي تستمد جذرها التاريخية من الحضارة السومرية والبابلية التي تعود الى أزيد من 5000 سنة، اذن هذه المنظمة العالمية التي تسيطر على العالم، يعود اصلها الى هاتين الحضارتين، ونجد البنوك والضرائب و التجارة وحتى العبودية من افكار هذه المنظمة التي تدمر كل ما هو حي الى ميت، بل حولت المروج الخضراء الى صحراء قاحلة وأحسن دليل و مثال على ذلك العراق و ما يحدث فيها من دمارو استبداد وطمس للهوية.

نستخلص عن هذا الرمز المتمثل في الهرم الذي تعلوه عين تراقب كل ما هو في الارض، القاعدة الشعبية التي ترمز إليها الادراج الثلاثة عشر تمثل 13 قرالية في الولايات المتحدة و المتمثلة أيضا بـ 13 نجمة في علم هذا البلد الذي يرمز الى السيطرة و الخضوع ، كما نلاحظ في اسفل الهرم كتابة بالحروف الروماني (MDCCLXXVI) تمثل الارقام: 1,5,10,50 ، 100,500,1000 يعتبر النظام الجديد الذي يسير القرون، وهو يرمز الى العام الذي نشأت فيه الولايات المتحدة الامريكية: باجويلية 1776 كما تأسس ما يسمى بـ (Bohenian club) سنة 1872، والى يومنا في كل شهر جويلية، عيد تأسيس الولايات المتحدة، يتجه الرؤساء والوزراء وأغنياء العالم لدراسة مجريات تأسيس هذا النظام الجديد

تقديس الطبيعة والديانة الكونية

ويعقد الاجتماع في كاليفورنيا، في قصر منعزل أين تقام طقوس احتفالية سحرية وشعائر أمام صنم البومة الذي يرمز إلى الإله البابلوني Maloch كذلك تقدم قرابين وطقوس ذات طابع جنسي انحرافي لارضاء وخدمة الشيطان*

"فقد اعتبر فيكتور تيرنر Victor Turner أن الرّمز هو أصغر وحدة للشعيرة وهو الذي يحتوي على صفات معينة توضح السلوك الشعائري، واعتبره الوحدة النهائية لبناء معين في المحتوى الشعائري يمكن ملاحظته من خلال الرضا والقبول العام كما أنه يرتبط بفكرة أو بحقيقة معينة".¹⁰

كما تتميز الألوان عند الجماعات الديّنية التي تؤدي هذه الشعائر برمزية خاصة، ويجب أن يتقبلها كلّ أعضاء الجماعة، مثلاً الأعلام والرايات، ما يسمى "بالسانجاق" هذا العلم يمثل الزاوية أو الجماعة الديّنية أو المقام والضريح فهي ترمز ألوانها إلى فكرة معينة أو حقيقة معينة تؤمن بها هذه الجماعة، مثلاً اللون الأسود للجماعة الصوفية الدفاعية، واللون الأخضر للجماعات الشاذلية واللون الأحمر للجماعات الأحمدية، وهذه الرايات كرموز تحظى بقبول خاص، فالأعضاء يتنافسون على حملها ويعتقدون أنهم يملكون مكانة عالية وقيمة اجتماعية تميزهم عن غيرهم، بل يكونون أعلى مرتبة من زملائهم في الجماعة الواحدة، وهذه الأعلام تمثل الدليل الذي تعرف به الجماعة الديّنية عن الأخرى، وهذا الرّمز الذي يميّزها عن باقي الجماعات التي تحضر المواسم وتؤدي الشعائر.

"ومهما يكن فإن الباحث الأنثربولوجي المشكلة الرئيسية التي تواجهه تكمن في دراسة وفحص صيغ الرموز ومحاولة فهم نسق الأفكار التي تعبر عنها، والتأثيرات المرتبطة باستخدام بعض المفاهيم الرّمزية"¹¹

* fr. wikipidia.org www.syti.net

¹⁰ فاروق أحمد مصطفى الأنثربولوجيا ودراسة التراث الشعبي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2008، ص

65.

¹¹ نفس المرجع ص، 66.

والأنثروبولوجيا الحديثة تتجه نحو اتجاه جديد يسمى الدراما، فالكثير من الشعائر يمكن تحليلها في ضوء الاتجاه الدرامي الذي يعتبر طريقة للتحليل تستخدم في دراسة العلاقات الإنسانية، واستعمال الدراما في تحليل الشعائر يضفي عليها صيغا جمالية، فتدخلها في قالب فني، حيث يتمحور حول الفعل والفاعل والمشهد وتحديد الغاية من ذلك الدور. ففي الشعائر الدينية "كالوعادات" و "الزردات" نجد الفاعل هو هذا الإنسان الذي يتردد على الموالد وهو يعتبر ربما عضوا في جماعة دينية، أما المشهد، فيختلف النشاط قد يكون موكب دينيا أو حفلا أقيم داخل المسجد أو موسما كموسم عاشوراء أقيم في مقام ولي معين، أو وعدة أقيمت في القرية من أجل طلب الغيث إلى غير ذلك. أمّا الفعل فهو الاستجابة لهذا الشخص في المواقف المختلفة التي يشترك فيها.

ومما يجدر الإشارة إليه أن الدراما الاجتماعية لا تعتمد كونها موقفا خياليا وإنما هي موقف حقيقي يمكن إخضاعه للملاحظة المنهجية.

وذلك يتضح في الكثير من الشعائر كالإمتثالات الدينية مثلا عند الشيعة، احتفالات أربعية سيدنا الحسين في كربلاء وفي كل موسم عاشوراء يتحول المشهد إلى دراما اجتماعية، حقيقية والأمثلة على الاحتفالات الشعبية كثيرة.

وعند دراستنا للشعائر لا يجب أن يفوتنا ذكر حالات التفاعل الاجتماعي Intersection sociale ، التي تتم بين الأفراد، فالتفاعل عملية ترتبط بالإنسان الذي يقوم بأداء فعل معين بغرض أحداث التأثير في الآخرين وهذا الإنسان يعيش في جماعة معينة، ويخضع لثقافة سائدة في عاداته ومعتقداته وطريقة تفكيره، وهو يتصل بالأفراد الآخرين في المجتمع، فيؤثر فيهم ويتأثر بهم ولا يمكن أن قيم التفاعل إلا من خلال الاتصال التي تعدّ من العمليات الأساسية لأحداث التفاعل، ويظهر التفاعل الاجتماعي بين الجماعات في الاحتفال الديني عن طريق التعاون

تقديس الطبيعة والديانة الكونية

وتبادل المنفعة والمساعدة، ومبنية على قواعد وأسس مثل قانون خاص بالطرق الصوفية "صدر عام 1903 وهي لائحة الطرق الصوفية".¹²

فكل هذه الطرق تسير وفق نمط معين، يسوده التعاون والاحترام المتبادل بين كل الأعضاء ومراعاة التسلسل الهرمي والمكانة التي ينتسب إليها بعض الأعضاء، كما هناك "عناصر مشتركة بين التفاعل وبين الدراما الاجتماعية تتلخص في وجود الفعل ووجود الفاعل الذي يعيش في جماعة أو في وحدة اجتماعية ويخضع لبعض المعايير والقواعد السلوكية والتي تستمد من ثقافة المجتمع".¹³

الخاتمة:

يؤدي المقدس السحري دور التخفيف من الضغط الاجتماعي والنفسي إنه المتنفس الوحيد خاصة للمرأة المقهورة المبعدة عن الأدوار الخاصة بالرجل فهي لا تتوان في اللجوء إلى العلاج التقليدي في حالة ما إذا لم تحقق حاجاتها المطلوبة والمفروضة لذلك يصبح فضاء المقدس فتحة للاتصال بالعالم الغيبي متخذة الولي والطقوس وسيلة للتقرب من هذا العالم المجهول.

يمكن القول بأن الناس الذين يترددون على زيارة المقامات والأضرحة، يجعلون ثقتهم في من يحرس هذا الفضاء، ويعدونه بالهدايا والرزق وفي نفس الوقت، يظهرون نيّتهم الخالصة ويقينهم الجازم في قدرات الولي الصالح الذي عن طريقه يسترزقون بسلوكيات وطقوس وشعائر تقرّبهم من الولي، وهي تعبير عن الإخلاص والولاء والتقدير والثقة التي يحملونها في وجدانهم وهي مرآة عاكسة لأحلامهم وأمانهم ومتطلبات حياتهم اليومية.

المراجع:

¹² نفس المرجع، ص 69.

¹³ نفس المرجع، ص 70.

أ. باللغة العربية:

1. إلياد مرسيا، المقدس والمدنس، ت، عبد الهادي عباس، ص 1، دار دمشق، 1968.

2. طوالي نور الدين، في إشكالية المقدس، ت وجيه البعيني، منشورات عويدات بيروت، 1988.

3. فاروق أحمد مصطفى الأنثربولوجيا ودراسة التراث الشعبي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2008.

4. كايوروجيه، الإنسان والمقدس، ت سمير ورشة، المنظمة العربية للترجمة، ط 1 بيروت 2010.

ب. باللغة الأجنبية:

5. Jean servier, tradition et civilisation berbère, les portes de l'année, édition du moches, monceau, 1985.

6. Ouatis Aissa, les contradictions sociales et leur expressions symbolique dans le sétifois, SNED (R.A.P.E), Alger 1977.